1. المحاضرة الثانية: أنواع الدراما

أ. التراجيديا "المأساة"*: نشأتها وتعريفها

مهما تعددت الروايات حول نشأة المأساة الأثينية ، فمن المسلم به أن المأساة جاءت من الرقصات والأغاني الديثرامبية ، ثم أخذت تتطور تدريجياً حتى صارت فناً قائماً بذاته. ومن المؤكد أن الديثرامبوس قد تطور تطوراً سريعاً منذ أن أرتبط بأعياد هذا الآله ة التي تقام في أثينا ، فكما نعلم أن المأساة اليونانية منذ نشأتها استمدت موضوعاتها من الأساطير والخرافات التي ورثها اليونان عن أسلافهم، ولكن شعراء المأساة لم يكتفوا بأسطورة ديونيسيوس وحدها بل تناولوا في مسرحياتهم كثيراً من الأساطير التي تدور حول الآلهة وأنصاف الآلهة وأبطال الخوارق.

ويجب ألا نعتقد أن شعراء المأساة تناولوا هذه الأساطير كما هي، بل أدخلوا عليها تغييرات وإضافات، ولأن الأسطورة اليونانية كانت تتضمن عدداً من القصص الغامضة المتشابكة، لذا كان على الشاعر أن ينسقها ويعدها في صورة قصة واحدة تتناول أحداثاً متتالية تنتهي بعقدة مثيرة.لذا كان الشعراء يتخذوا من هذه الأساطير أطراً لمعالجة المشاكل الاجتماعية والخلقية المختلفة المواكبة لعصرهم، كما كانت تعالج المشاكل والأوضاع السياسية الداخلية والخارجية، بموضوعات ترتبط بالوقائع التاريخية والحوادث المعاصرة.

وفي تعريفها هي نسبة إلى اللفظين اليونانيين TRAGOS أي الماعز وOIDE أي أغنية[i]، و"المعنى اللغوي لهذه التسمية هو أغنية الماعز وفقا لأرجح التفسيرات، فإن سبب هذه التسمية كما ذكر سابقا يرجع إلى أن الجوقة القديمة في الأناشيد الديثيرامبية التي نشأت منها التراجيديا، التي كانت ترتدي جلد الماعز، على أساس أن المنشدين يمثلون دور الساتيري أتباع الإله ديونيسيوس"[ii]، فاليونان كما نعلم ارتبطت حضارتهم كلها بآلهتهم واعتقاداتهم، فالمنبت الأول للتراجيديا الإغريقية كان الدين الوثني.

ويعرفها أيضا بأنها محاكاة للفعل الجاد النبيل المكتمل في ذاته، نظرا لما يتسم به من عظم الشأن، في لغة لها من المحسنات ما يمت بالحوار بين طرفين لا عن طريق السرد كما في الملحمة ، وذلك في إطار درامي وليس قصصيا، أما الوقائع فهي تثير مشاعر الشفقة والخوف، وبذلك تحقق التطهير* المرجو منها لهذه المشاعر[iii].

هذا "التعريف جرى تفسيره على أنه يختص بالقيمة العلاجية للتراجيديا، من ناحية توفيرها لمنطلق أو لمخرج للعواطف التي قد تتراكم بسبب استمرار الضغط مما قد يؤدي بالإنسان إلى تصرفات خاطئة"[iv]، ذلك أن العواطف - خاصة عاطفتي الخوف والشفقة - عندما تثار في التراجيديا تتطهر النفس البشرية من العقد والهواجس وشتى المخاوف الإنسانية.

وحسب أرسطو هي محاكاة[v]* "لفعل جاد وتام في ذاته، له طول معين في لغة ممتعة لأنها مشفوعة بكل نوع من أنواع التزيين الفني، كل نوع منها يمكن أن يرد على انفراد في أجزاء المسرحية، وتتم هذه المحاكاة في شكل درامي لا في شكل سردي وبأحد اث تثير الشفقة والخوف، وبذلك يحدث التطهير"[vi]. وتعتبر التراجيديا "مسرحية ذات موضوع جاد، ذي طابع حزين، يتعرض لأفعال البشر في صراعهم مع القوى التي تحيط بهم، وتتحكم في مسار سلوكهم، سواء كانت قوى خارجية مثل البشر أو الآلهة، أم قوى داخلية مثل النوازع والأهواء ،أين كان كتاب التراجيديا يحاولون أن يظهروا في أعمالهم أن السلوك الإنساني ما هو إلا نتيجة نوازع داخلية قائمة على أساس من الفكر، وأن ما يقوم به الإنسان من أفعال في حياته، إنما هو نتيجة لوقوع الإنسان فريسة لصراع، ما بين العقل والأهواء"[vii].

هذا وقد وضع أرسطو "بناءا صارما للمسرحية التقليدية، التي يجب أن تتوفر فيها العناصر الأساسية، كما حددها في كتابه فن الشعر وهي الشخصيات، الأفكار، اللغة، المشاهد والأغنية محدد بالمقدمة والذروة والختام، يوضع في إطار مثلث صارم هو الآخر، يتمثل في وحدة الزمان والمكان والحدث"[viii]، وظلت هذه القواعد تطبق لفترة طويلة، لكنها - خاصة المثلث الأرسطي – تعرضت لتغييرات في عناصرها عبر تطور

نظريات الدراما، لكنها بقيت رغم ذلك المرجعية الأساسية للكتابة الدرامية، يهتدي بها كتاب المسرح عبر مختلف العصور باختلاف مذاهبهم وتياراتهم.

ب. الكوميديا"الملهاة"* : نشأتها وتعريفها

" يختلف مصدر نشأة الكوميديا (الملهاة) عن نشأة التراجيديا (المأساة) وبالتالي تختلف وظيفتها، فهي لم تنشأ في أحضان الدين، أوفي تطور الطقوس الدينية، ولهذا السبب لم تحظ ولفترة طويلة باحترام كامل إلا بعد أن أسس لها "أرسطو فانيس" وثبت وجودها ، وترجع نشأة الملهاة إلى الطقوس الشعبية "كوموس أتيكا" وهذه الطقوس كان يقوم بها مجموعة من المهرجين (الضحَّاكين) العابثين حيث ينتظمون في مواكب يرددون أغاني وأشعارا لا يُعرف اسم مؤلفها، والتي تمجد الإله ديونيسيوس ومن كلمة "كوموس" اليونانية أخذت الملهاة اسمها في اللغات الأوربية وتحورت إلى الكوميديا"[ix].

وهي حسب أرسطو دائما: "محاكاة لأناس أردياء الناس أي أقل منزلة من المستوى العام، ولا تعني الرداءة هنا كل أنواع القبح، ويمكن تعريف الشيء المثير للضحك بأنه الشيء الخطأ أو الناقص الذي لا يسبب للآخرين ألما أو أذى، ولنأخذ القناع الكوميدي المثير للضحك كمثال يوضح ذلك، ففيه قبح وتشويه ولكنه لا يسبب ألما عندما نراه"[x]، كما أن الكوميديا تلطف من حدتها، وتعود بها إلى معيارها الصحيح، وبالتالي تطهر الذهن أيضا منها ومما شابهها من العواطف السلبية المثيرة للضحك والنقد.

ويعتبر التقليد إعادة لما هو كائن، بلا زيادة ولا نقصان، بينما لا تكون المحاكاة كما يقول أفلاطون: "صورة مطابقة للواقع المنقول عنه، بل صورة متغيرة ومختلفة إلى حد ما عن هذا الواقع"[xi]، ونفهم من هذا أن المحاكاة هي تقليد مبدع يضيف إليه الفنان لمسات جديدة تجعله -أحيانا- يسمو على الأصل المحاكى، ولذلك فهي ليست نقلا حرفيا ولا تصويرا فوتوغرافيا لما هو كائن، بل ما ينبغي له أن يكن بصورة فنية إبداعية.

لقد تميزت المحاكاة في الدراما أو الشعرية الدرامية عن الأقسام الأدبية الشعرية الأخرى ونقصد بذلك الغنائية الملحمية، حيث انشغل الفلاسفة اليونانيون بهذه الأقسام التي تعبر كل منها عن مشاكل الإنسان وأوضاعه بطريقتها الخاصة، فالغنائية صارت محاكاة سردية منفردة على لسان الشاعر (ذاتية) وصارت الملحمة سردا مزدوجا في التعبير عن الماضي والحاضر (ذاتية + موضوعية)، وصارت الدراما فعل في الحاضر ومحاكاة مباشرة مماثلة، أي محاكاة فعلية ومؤداة وليست بالسرد أو القص[xii]، وكأننا قمنا بإعادة تركيب شيء جديد من مصدره الأول أو المنقول عنه، ولكنه ليس هو ذاته، يجمع بين الجنسين.

بنية النص الدرامي

صارت عودة النص المسرحي القوي إلى الساحة الفنية ضرورة إنسانية وسياسية وحضارية، والذي يعد وسيلةً لإثبات الذات وطريقة لتعميق الرؤى والآمال، وهذا لن يتأتى إلا إذا عادت إلى أركان بيتِ الدراما والقواعد الصارمة التي لا يكون المسرح مسرحا إلا بها، كما إن أصول الدراما بعد إعادة النظر فيها والتخلص من بعض قواعدها التي لم تعد مناسبة للعصر ؛ أي من التقليد إلى التجديد في الأدب المسرحي بشكله الجديد، وهذا ما جاء به بعض المنظرين على مستوى الكتابة أمثال هيجل وبيسكاتور وبرتولد بريخت، هذا الأخير الذي يعود إلى ما قبل الدراما بعد أن يعيد النظر في أصولها ، وهو تمردٌ عليها بمقدار ما هو تأكيدٌ لها ، ولا يقف عند أصول الكتابة وحدها، بل يتعرض لتجسيد النص المسرحي على الخشبة لكي يستكمل الحالةَ المسرحية التي هي نص وعرض، وبذلك يحاول أن يضع أمامنا أسلوب التعامل لا مع النصوص الجديدة فحسب، بل مع نصوص البشرية جمعاء ، فما أنتجته البشرية من الأدب المسرحي هو الموروث الحضاري لجميع الشعوب في جميع العصور[xiii].

---

* تتركب كلمة التراجيديا، Tragàdia من لفظتين Tragos، بمعنى جدي أو ماعز، ومن Oidé بمعنى نشيد أو أغنية. ،أنظر أرسطو، فن الشعر، تر إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو مصرية، 1983، ص60.

i- أرسطو، فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،1983، ص11.

ii- محمد نصار وقاسم كوفحي، تذوق الفنون الدرامية، م س، ص16. نقلا عن ،إبراهيم سكر، الدراما الإغريقية، د ط، المؤسسة العامة للنشر، 1958، ص11.

* التطهير: من أعقد المصطلحات الأرسطية التي دار حولها جدل طويل، ويحدث التطهير من خلال عاطفة الشفقة والخوف من منطلق أنهما وسيلتان لتطهير الروح من الطمع والشهوة، لأن المأساة هدفها التعليم، شريطة أن تتوفر على الإقناع والمنطقية، والملهاة تدعو إلى الطريق القويم من خلال عرض درامي مصحوب بالضحك والدعابات الساخرة وبهذا يحدث التطهير بالخوف والشفقة في التراجيديا، وبالوقوف على أخطاءنا في الكوميديا.

iii- ينظر، أرسطو، فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، م س، ص ص101-102.

iv- حسين رامز محمد رضا، الدراما بين النظرية والتطبيق، م س، ص36.

v- ينظر إريك بينتلي، الحياة في الدراما، تر جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 3، 1982، ص 13.

* المحاكاة: ميمسيس mimrisis مصطلح نقدي، استعمله أفلاطون قبل أرسطو، وكان معروفا وقت ذاك للتفريق بين الفنون الجميلة والفنون التطبيقية، والمصطلح في دلالته القديمة يتضمن معنى العرض أو إعادة العرض، أو الخلق من جديد، و هي تقليد مبدع يضيف إليه الفنان لمسات جديدة تجعله -أحيانا- يسمو على الأصل المحاكى، ولذلك فهي ليست نقلا حرفيا ولا تصويرا فوتوغرافيا لما هو كائن، بل لما ينبغي له أن يكون. كما أن هناك مدلول آخر للمحاكاة، وقد جاء في الكلمة الإغريقية (mimmesis) والتي تعني مجرد نسخ بسيط، وذلك لرغبة الإنسان في الحياة مرتين، لذلك كان الفن وكانت المحاكاة الآنية لأنها مغروسة في الإنسان منذ طفولته، وأحد ما يفرقه عن الحيوانات الأخرى، لأنه أشدها محاكاة فنحن حين نتأمل الأشياء نسر حين نعيد تقليدها بأمانة وابتكار.

vi- ينظر، أرسطو، فن الشعر، تر: إبراهيم حمادة، م س، ص 95. نقلا عن سوالمي الحبيب، التجربة المسرحية في الجزائر بين الهواية والاحتراف، رسالة دكتوراه، إشراف، د. إيمون بن براهيم، جامعة وهران1، 2017، ص13.

vii- محمد نصار وقاسم كوفحي، تذوق الفنون الدرامية، م س، ص16.

viii- ينظر، أحمد إبراهيم، الدراما والفرجة المسرحية، م س، ص46 .

* الكوميديا: كلمة Komoidia تتركب من Komos بمعنى الحفل والصخب، ومن Olieden بمعنى يغني أو ينشد.

ix- أرسطو: فن الشعر، م س، ص170.

x- أرسطو، فن الشعر، م ن، ص، 88.

xi- محمد حمدي إبراهيم، دراسة في نظرية الدراما الإغريقية، دار الثقافة والطباعة والنشر، القاهرة، 1977، ص 29.

xii- ينظر فؤاد الصالحي، علم المسرحية وفن كتابتها، دار الكندي، ط1، 2001، ص 141.

xiii- ينظر، فرحان بلبل، النص المسرحي - الكلمة والفعل- من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق – 2003، ص10.